3/البلاغة في عصر بني أميّة(41هـ-132هـ):

ما إن نلج عصر بني أميّة حتّى نجد الخطابة بجميع ألوانها من سياسيّة وحفليّة ووعظيّة تزدهر ازدهارا عظيما، وفي كلّ لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب؛ أمّا في السّياسة فيشتهر من ولاّة بني أميّة "زياد والحجاج"، وفي زياد يقول الشّعبيّ: "ما سمعت متكلّما على منبر قطّ تكلّم فأحسن إلاّ أحببت أن يسكت خوفا من أن يسيء إلاّ زيادا فإنّه كلّما تكلّم أكثر كان أجود كلاما". وفي الحجّاج يقول مالك ابن دينار: "ربّما سمعت الحجّاج يخطب؛ يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم، فيقع في نفسي أنّهم يظلمونه وأنّه صادق، لبيانه وحسن تخلّصه بالحجج."

ومن خطباء الشّيعة زيد بن الحسين بن علي وكان لسنا جدلا يجذب النّاس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته، ومن خطباء المحافل سحبان وائل وقد خطب بين يدي معاويّة بخطبة باهرة سمّيت من حسنها باسم الشّوهاء، أمّا خطباء الوعظ فقد بلغوا الغاية من روعة البيان وفي مقدّمتهم غيلان الدّمشقي والحسن البصري وواصل بن عطاء.

ويقول الجاحظ: إنّ أدباء العصر العبّاسي كانوا يتحفّظون كلام الحسن وغيلان حتّى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانيّة، ويشيد ببلاغة واصل بن عطاء مدلّلا عليها بإسقاطه الرّاء من كلامه للثغته فيها، مع ما انتظم له من الطّلاوة والجزالة.

ومن الملاحظات الموجّهة لخطبهم الابتعاد عن الغرابة في اللّفظ والاقتباس من القرآن الكريم والاهتمام بجودة الابتداء. والحقّ أنّ الملاحظات البيانيّة كثرت في هذا العصر، وهي كثرة عملت فيها بواعث كثيرة؛ فقد تحضّر العرب واستقرّوا في المدن والأمصار، ورقيّت حياتهم العقليّة وأخذوا يتجاذلون في جميع شؤونهم السّياسية والعقديّة، فكان هناك الخوارج والشّيعة والزّبيريون والأمويّون، وكان هناك المرجئة والجبريّة والقدريّة والمعتزلة، ونما العقل العربيّ نموّا واسعا، فكان طبيعيا أن ينمو النّظر في بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتّصلة بحسن البيان، لا في مجال الخطابة فقط بل في مجال الشّعر والشّعراء.

بل ولعلّ المجال الثّاني كان أكثر نشاطا لتعلّق الشّعراء بالمديح وتنافسهم فيه، وقد فتح لهم الخلفاء والولاّة والقوّاد والأجواد أبوابهم، وكانوا يجعلون جوائز كلّ منهم بقدر شعره وبراعته فيه، فاشتدّ التّنافس بينهم، وهيّأ بعضهم لاندلاع الهجاء.

المهمّ أصبح كلّ منهم يتخيّر معانيه وألفاظه حيث تصغي لها القلوب والأسماع، وتساق إليه الجوائز الضّخمة وأخذ الشّعراء بحكم استقرارهم في المدن يلقّى بعضهم بعضا في المساجد والأندية والأسواق وعلى

أبواب من يمدحونهم وفي حضرتهم، فكثرت المحاورات بينهم من جهة وبين سامعيهم من جهة ثانيّة في براعتهم وفي بعض معانيهم وأساليبهم.

وقامت في هذا العصر سوق المربد في البصرة وسوق الكناسة في الكوفة مقام سوق عكاظ في الجاهليّة، بل لقد تحوّلا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين يغذو عليهما الشّعراء لينشدوا خير ما صاغوه من أشعار، واستطاع جرير والفرزدق أن يتطوّرا في سوق المربد بفنّ الهجاء القديم، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة في حقائق عشيرتي الشّاعرين وحقائق قيس وتميم ويتجمّع حولهم النّاس يصفّقون كلّما مرّ بهم بيت نافذ، ويهتفون ويصيحون.

ولعلّ من الطّريف أن نجد فكرة وحدة السّياق ترد على ألسنتهم، فقد ذكر الرّواة أنّ عمر بن لجأ قال لبعض الشّعراء: أنا أشعر منك، قال وبماذا؟ قال لأنّي أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمّه.